■ الباب الثامن عشر

الحاج مالك الشباز

THE AUTOBIOGRAPHY OF MALCOLM X

جعلني الملك فيصل ، ملك المملكة العربية السعودية ضيفاً رسميا على الدولة . ومن الإكراميات والامتيازات التي تأتي مع ذلك أذكر بخجل إنني استمتعت بالسيارة ذات السائق التي تجولت بها في أنحاء مكة كسائح ودليلي سائق العربة . بعض أحياء مدينة مكة قديمة قدم الزمن وبعض أحيائها الأخرى تشبه الضواحي الحديثة في ميامي . لا أستطيع أن أصف لكم شعوري وأنا أعصر بيدي التراب الذي وطأته أقدام الأنبياء العظام منذ أربعة آلاف سنة .

وحيثما ذهبت كانت جملة «مسلم من أمريكا » تثير الفضول والاهتمام والمرة بعد المرة ظنوني كاسياس كلاي ونشرت إحدى الصحف المحلية صورتي مع كاسياس كلاي في الأمم المتحدة وسألوني بواسطة سائقي ومترجمي ودليلي ، عشرات الأسئلة عن كاسياس . حتى الأطفال كانوا يعرفون عنه ويحبونه هناك في العالم الإسلامي كما أن دور السينما في أرجاء آسيا وأفريقيا كانت تعرض مبارياته بناءً على طلب الجماهير . في ذلك الوقت كان كاسياس قد سلب لب الشعوب الملونة في العالم وحاز على إعجابها .

أخذتني العربة للمشاركة في صلوات خاصة في جبل عرفات وفي منى . الطرق كانت مزدحمة والحركة كابوس ، الأبواق تصفر وأصوات الكابح تئن والعربات تتهادى نحو الرصيف (كل الناس هنا تقود سياراتها باسم الله). بدأت في تعلم الصلاة باللغة العربية وكل

مشاكلي الآن هي في الحركات الجسدية كما بدأ أصبع قدمي الكبير يتورم من طريقة القعود. ما عدا ذلك لم تعد عادات المسلمين غريبة أو صعبة علىّ وبسهولة تعودت على الأكل جماعة وتلقف الأكل بيدي من طبق أقتسمه مع الأخوة المسلمين . صرت أشرب من نفس الكوب مع الآخرين بدون تردد وأغتسل من نفس الإبريق الذي يستعمله الآخرون وأنام على حصيرة في العراء مع سبعة أو ثمانية آخرين . أذكر ليلة قضيناها في مزدلفة مستلقين في العراء نتلحف السماء وقضيت الليل ساهراً بين أخوتي المسلمين النيام وفي تلك الليلة تعلمت أن الحجاج من كل لون وطبقة ووظيفة ، كبارهم وصغارهم – كلهم يشخرون بنفس اللغة .

سأراهن أن مليون قنينة ماء استهلكت في بعض أجزاء الأراضي المقدسة وعشرة مليون لفافة تبغ دخنت . العرب خاصة بين المسلمين كانوا يدخنون بشراهة حتى في الحج . ظني لو كان التدخين معروفاً في زمن النبي محمد لمنعه .

الحج ذلك العام كان أكبر حج في التاريخ كما عرفت بعد ذلك . أخبرني قاسم جوليك ، عضو البرلمان التركي ، بفخر أن أكثر من ستمائة حافلة أو خمسين ألف حاج حضروا من تركيا وحدها . قلت له :إنني أحلم باليوم الذي تأتي فيه سفن محملة وطائرات ملأى بالحجاج القادمين من أمريكا .

كان هنالك نسق لوني ما إن لاحظته حتى بدأت مراقبته بدقة بعد ذلك ولأني من أمريكا لدى حساسية نحو هذا الموضوع . رأيت الناس الذين يشبهون بعضهم البعض يميلون للبقاء مع بعضهم وكل ذلك عن طواعية فليس هنالك من سبب آخر . الأفريقيون كانوا مع الأفريقيين . والباكستانيون مع الباكستانيين وهلم جرا . أودعت تلك المعلومة ذاكرتي لأقولها للأمريكيين عند عودتي : أنه عندما يوجد التآخي الصادق بين كل الألوان ، وتتعدم الحواجز وعقد العظمة أو « الحقارة » – عندما يتم ذلك فإن الناس من الجنس الواحد تشعر بانجذاب نحو بعضها ويشدها شيء مشترك نحو بعضها البعض .

عزمت في نفسي أنه عندما يحين موعد حجتي التالية سأكون قد تعلمت بعض اللغة العربية حتى أتمكن من تسيير أموري . ومع حالتي تلك من الجهل والعجز ، أعد نفسي محظوظاً إذ وجدت أصدقاء صبورين مكنوني من الكلام والترجمة بواسطتهم . وعندما لا يكون هنالك مترجم كنت أشعر بأني أصم أبكم كما لم أشعر من قبل في حياتي ، لم أكن حينها أفهم ما يقول المسلمون الآخرون لي أو عني أو حولي قبل أن يعرفوا أن « المسلم القادم من أمريكا » لا يعرف إلا بعض الكلمات العربية وما عدا ذلك فهو يومئ ويبتسم فقط .

خلف إيماءاتي وابتساماتي كنت أفكر بالطريقة الأمريكية . بدأت أقول

لنفسي أن الإسلام – يمكن أن ينتشر بسرعة وتتضاعف أعداد المسلمين أكثر من مرة لو أتيح للحج بمراسيمه وبهجته الروحية الحقيقية أن يذاع في أنحاء العالم الخارجي . شعرت بأن العرب لا يفهمون نفسيات كثير من الشعوب الأخرى ولا يعيرون اهتماماً للعلاقات العامة والإعلام . العرب يقولون « إن شاء الله» ثم ينتظرون المهتدين الجدد وحتى مع هذا كان الإسلام في اندفاع وتقدم ولكني كنت أرى أنه بتحسن أساليب العلاقات العامة سيصبح المنقلبون إلى طريق الله بالملايين .

دائماً وفي كل مكان ذهبت إليه كانوا يسألونني عن الوضع والتفرقة العنصرية في أمريكا . وحتى مع خلفيتي ذهلت للدرجة التي يربط بها الناس صورة أمريكا مع التفرقة العنصرية .

في مائة محادثة مع المسلمين في الأراضي المقدسة كبارهم وصغارهم ومن جميع أنحاء الأرض وحتى حينما ذهبت إلى أفريقيا بعد ذلك – لست بحاجة إلى أن أخبركم أنني لم تفوتني فرصة لأحدثهم عن الجرائم والشرور والإساءات التي يتعرض لها الرجل الأسود دون أن أنتهزها . تكلمت عن ذلك في جبل عرفات وفي ردهة الفندق في فندق جدة بالاس . كنت أشير إلى واحد إثر آخر وأقول لهم : « أنت .. . أنت نفسك ... وبسبب لونك الداكن سينادونك بالزنجي ... قد يضربونك أو يفجرون قنبلة فيك أو يقودونك كالنعاج أو يفتحون فيك خراطيم المياه لمجرد لون بشرتك ».

وكما سمعني أكثر المسلمين فقراً ، سمعتني بعض أهم شخصيات العالم الإسلامي . تحدثت كثيراً مع صاحب العينين الزرقاوين وأشقر الشعر الحاج أمين الحسيني المفتي الأكبر لبيت المقدس الذي قدمني إليه قاسم جوليك عضو البرلمان التركي وكلاهما علماء أجلاء وقراء مطلعون على أحوال أمريكا . سألني قاسم جوليك لماذا كان انشقاقي عن الإيجا محمد . أجبت بأنني أفضل ألا أسترسل في هذا الموضوع حفاظاً على وحدة الرجل الأسود. كلاهما فهم وتقبل ذلك .

تحدثت مع عمدة مكة ، الشيخ عبد الله عريف الذي كان انتقد بلدية مكة عندما كان صحفياً فعينه الملك فيصل عمدة لمدينة مكة ليرى إن كان بإمكانه أن يحسن من الأمور والجميع متفقون على أن شيخ عريف قام بعمله خير قيام . كذلك قام أحمد حورى الله وشريكه أسيد محمود من تلفزيون تونس بإخراج فيلم أسمياه «مسلم من أمريكا» وقد سبق وأن قام أحمد حورى الله عندما كان في أمريكا بعمل لقاء مع إلايجا محمد في شيكاجو. أتاح لي بقائي في فندق جدة بالاس أن ألتقي في ردهة الفندق وأتحدث مع عدد من الشخصيات المهمة من عدة بلدان كان لديهم فضول لمعرفة شيء ما عن « المسلمين الأمريكيين » قابلت أفارقة

زاروا أمريكا أو سمعوا شهادة أفريقيين زاروها عن معاملة الرجل الأسود . أذكر مرة وكنا مجموعة كبيرة عندما قام وزير من دولة أفريقية (عليم بمجريات الأمور في العالم أكثر من أي شخص قابلته) وحكى عن زياراته المتفرقة في أمريكا جنوبها وشمالها بدون ارتداء زيه القومي وعن عمد . مجرد تذكر الإساءات التي تعرض لها كرجل أسود أثارت من جديد غضباً وحنقاً في هذا المسئول المتعلم الموقر. لمعت عيناه وهو يتحدث بغضب ويداه تلوحان : « لماذا يرضى الرجل الأسود بهذا الظلم ؟ لماذا لا يتحرك الرجل الأسود ويناضل كإنسان ؟ » .

قابلني مسؤول سوداني كبير احتضنني وقال : « أنت نصير الرجل الأمريكي الأسود !» بكى مسئول هندي في تعاطف وقال : من أجل « أخوتي في بلادكم .» فكرت مرات كثيرة وكثيرة في نفسي عن كيف أن الزنجي الأمريكي قد غُسل مخه تماماً حتى لا يفكر أو يرى نفسه كجزء من الشعوب غير البيضاء . ليست لدى الزنجي الأمريكي أدنى فكرة عن اهتمام كثير من غير البيض في العالم بمصيره وعن شعور التضامن والإخاء الذي يكنون له .

هنالك في الأراضي المقدسة وبعد ذلك في أفريقيا وصلت إلى قناعة تامة ما زلت احتفظ بها وهى أن أهم مقتضيات الزعامة لأي زنجي أمريكي قيادي هي أن يقوم بجولات طويلة في البلاد غير البيضاء في هذا العالم وأن يشتمل ذلك التجوال حضور كثير من اللقاءات مع قادة هذه الدول . أؤكد لك أن أي زعيم زنجي يقوم بذلك بعقل مفتوح وقلب مخلص سيعود ولديه أفكار وبدائل أكثر فاعلية لحل مشكلة الرجل الأسود في أمريكا . فوق كل شيء سيقابل ذلك الزعيم الزنجي كثيرين من قادة العالم غير البيض خاصة الأفريقيين الذين سيقولون له على انفراد :إنهم على استعداد لأن يلقوا بثقلهم خلف قضية الزنجي الأمريكي إذا رفعت إلى الأمم المتحدة . لكن نفس هؤلاء القادة يشعرون أن الزنجي الأمريكي مشوش الفكر ومنقسم على نفسه بدرجة لا يعرف معها هو نفسه ما هي قضيته . مرة أخرى أكد لي هؤلاء الزعماء أنهم لا يودون أن يُحرجوا باحتضان قضية أخ لم يشعرهم بأنه في حاجة لهم بل يبدو أنه يرفض التعاون معهم لمصلحته .

أكثر مشاكل قادة الزنوج حرجاً هي فقدانهم للخيال الواسع . أفكارهم وإستراتيجياتهم ، إن كانت لهم أفكار وإستراتيجيات، دائماً محدودة من الناحية السياسية على الأقل ، بما يشير به أو يصدق عليه الرجل الأبيض وأول ما يأباه صناع السياسة البيض على الرجل الأسود هو عالمية التفكير وتدويل مشكلته . في رأيي أن أكبر خطأ ارتكبته منظمات السود وقادتها هو رفضهم إنشاء اتصالات مباشرة بين دول أفريقيا المستقلة وشعب أمريكا الأسود . لم لا يتلقى رؤساء الدول الأفريقية تقريراً

صباح كل يوم عن آخر تطورات نضال الرجل الأمريكي الأسود من الزعماء السود بدلاً من أن تصلهم نشرات وزارة الخارجية الأمريكية التي تزعم لهم أن مشكلة الرجل الأسود في طريقها إلى « الحل » ؟!

هنالك اثنان من الكتاب الأمريكيين تباع كتبهم بكثرة في الأراضي المقدسة ساعدا على نشر الوعي والاهتمام بقضية الرجل الأسود . ذينك هما جيمس بولدوين الذي تُرجم له كتابان وكان لهما أثر بعيد ثم جون جريفين مؤلف كتاب **أسود مثلي** . إذا لم تكن قد سمعت عن هذا الكتاب فهو كتاب يحكي قصة رجل أبيض دهن جسده باللون الأسود ثم قضى شهرين يتجول في أمريكا كرجل أسود وكتب عن تلك التجربة بعد ذلك . سمعت الكثيرين في الأراضي المقدسة يصفونها بأنها « تجربة مخيفة» بعد قراءتهم للكتاب . لكنني لم أسمعهم يكتفون بذلك التعليق بل أنها فتحت عيونهم وتفكيرهم : « حسناً ، إذا كانت التجربة مخيفة لشخص لم يكن إلا أسود مؤقتاً لمدة ستين يوما فكيف إذن حال الزنوج الحقيقيين في أمريكا الذين قضوا أربعمائة عام كذلك ؟» .

أكبر تكريم تمنيت على الله وتحقق كان : دعوة من صاحب الجلالة الملك فيصل للقائه على انفراد .

وأنا أدخل الغرفة قام الملك فيصل من وراء مكتبه ، رجل وسيم طويل . لن أنسى ما حييت الفكرة التي خطرت لي في تلك اللحظة ، هنا رجل من أقوى وأعظم الرجال في العالم ولكني في اعتزازه رأيت التواضع والإخلاص . أشار لي إلى المقعد المقابل له بينما يترجم لنا نائب رئيس المراسيم محمد عبد العزيز مجيد ، مصري عربي يشبه زنجي من هارلم .

وأنا أتعثر وأتلعثم بالكلمات محاولاً شكره على الشرف العظيم الذي حباني به بأن جعلني ضيفاً على الدولة ، أومأ لي وبصبر وأناة أوضح لي أن ذلك ليس إلا ترحيب مسلم بأخ مسلم ولست بمسلم عادي بل مسلم من أمريكا . طلب إليَّ أن أفهم أنه فعل كلما فعل بسرور وليس من غرض ورائه .

قدم لنا الخدم نوعين من الشاي بينما الملك فيصل يتكلم . « ابنه محمد الفيصل» شاهدني في التلفاز عندما كان يدرس في جامعة شمال كاليفورنيا والملك فيصل نفسه قرأ مقالات كتبها كاتب مصري عن « المسلمين السود» في أمريكا . تفضل الملك بالقول : « إذا كان ما يقوله هذا الكاتب صحيحاً فإن إسلامهم ليس صحيحاً.» أوضحت له أن غرضي من الحج هو أن أفهم الإسلام وأعرفه أكثر . أجاب جلالته : « ذلك حسن» ثم أشار إلى وجود عدة ترجمات بالإنجليزية عن

الإسلام الحقيقي وليس هنالك من عذر للمخلصين أن يبقوا على ضلالة .

في آخر إبريل ١٩٦٤ غادرت بالطائرة إلى بيروت ، الميناء البحري وعاصمة لبنان . تركت جزءًامن نفسي في الأراضي المقدسة وبدوري أخذت منها شيئاً صار جزءًا مني للأبد . كنت في طريقي لزيارة نيجيريا وغانا إلا أن بعض الأصدقاء ألح عليَّ أن أتوقف عند بعض الأماكن في الطريق فوافقت . على سبيل المثال نظموا لي أن تكون وقفتي الأولى في الجامعة الأمريكية ببيروت لأخاطب الطلاب والأساتذة في الجامعة .

في فندق بالم بيتش في بيروت نعمت بأول ضجعة طويلة لي منذ أن غادرت أمريكا . بعد ذلك بدأت التمشي وأنا عائد لتوي من الأراضي المقدسة ، وكان أول شيء لفت انتباهي هو لبس وسلوك المرأة اللبنانية . في الأراضي المقدسة النساء أنثويات ومتواضعات . وفجأة هذا النقيض من المرأة اللبنانية نصف الفرنسية ونصف العربية والتي تعطي انطباعاً بالإقدام والحرية ، رأيت بوضوح الأثر الأوروبي على الحياة اللبنانية . أوضح لي ذلك أن قوة أي بلد أو ضعفها الأخلاقي يمكن قياسه بسرعة من أزياء وأسلوب النساء ، خاصة الشباب منهن . في أي مكان تنطمس قيمة الروحية ، إن لم تتحطم ، ينعكس ذلك في النساء . انظر إلى النساء في أمريكا ، كبارهن وصغارهن حيث لم تبق بالكاد أية قيم روحية . يبدو أن كل بلد يتطرف في هذا المنحى أو ذاك والجنة حقاً هي المكان الذي به توازن بين التقدم المادي والقيم الروحية .

تفوهت بالحقيقة في خطابي أمام طلاب جامعة بيروت الأمريكية عن وضع الرجل الأسود الأمريكي . وكما قلت سابقاً علمتني تجاربي أن أحس بعاطفة جمهور المستمعين حينما أتحدث . كنت أشعر أثناء حديثي بردة الفعل الدفاعية وغير الموضوعية من جانب الطلاب الأمريكيين البيض بين الحاضرين ، لكن روحهم العدائية خفتت تدريجياً وأنا أدفع أمامهم بالحقائق الناصعة . أما الطلاب الأفارقة فحدث ولا حرج ، لم أتمالك نفسي من فرط إظهارهم لعواطفهم .

بعد ذلك بمدة علمت باستغراب أن الصحف الأمريكية كتبت تقول أن خطابي في بيروت أحدث « شغباً » . أي الشغب هذا الذي يتحدثون عنه ؟ لا أدري كيف يبعث مراسل صحفي مخلص بهذا الكلام ؟ لا يذكرتقرير صحيفة **ديلي ستار** البيروتية الذي ظهر في الصفحة الأولى ، لا يذكر تقريرها أي شغب . لأنه لم يكن هنالك أي شغب . حينما انتهيت من الحديث أحاط بي الطلبة الأفريقيون وحاصروني طالبين أن أوقع باسمي على كتبهم وبعضهم عانقني حتى . لم يحدث أن تقبلني جمهور مستمعين زنوج في أمريكا ، مثلما تقبلني أولئك الأفارقة المتواضعون المرة بعد المرة .

من بيروت طرت إلى القاهرة ومن هناك ركبت القطار إلى الإسكندرية في مصر . كاميراتي كانت مشغولة في كل وقفة وأخيراً ركبت الطائرة إلى نيجيريا .

خلال ستة الساعات التي قضيتها في الرحلة كنت إما في حديث مع القبطان (الذي كان بطلاً أولمبياً عام ١٩٦٠) أو مع سياسي أفريقي ملتهب الحديث . كان يصرخ حماساً : «عندما يكون الناس في حالة جمود ثم يخرجون منها فليس هنالك وقت للتصويت والانتخاب.» كان محور حديثه أنه ليست هنالك دولة أفريقية حديثة الاستقلال تحاول أن تمسح آثار الاستعمار، في حاجة إلى نظام سياسي يسمح بالشتات والتفرقة. « الشعوب لا تعي معنى التصويت ومهمة قادتها المتنورين أن يرتفعوا بوعي الشعب ».

في لاجوس حياني في المطار بروفسير إسينَ – أودوم من جامعة عبادان . كلانا كان سعيداً بلقاء الآخر إذ كنا تقابلنا قبلا في نيويورك عندما كان يدرس ويعد كتابه عن القومية السوداء . في بيته في ذات المساء أقام عشاء على شرفي حضره نخبة من أساتذة الجامعات والمهنيين . في أثناء العشاء سألني طبيب شاب إن كنت سمعت أن صحف نيويورك مستاءة جدًّا من حادث قتل امرأة بيضاء في هارلم وذكرت الصحف أن الكثيرين يلومونني بسبب ذلك ، على الأقل بطريقة غير مباشرة . هاجم عدد من الزنوج الشباب رجلاً أبيض عجوزاً يملك متجراً للملابس في هارلم وطعنوا زوجته إلى أن ماتت من جراء ذلك . بعض أولئك الزنوج عندما اعتقلتهم الشرطة وصفوا أنفسهم بأنهم أعضاء في منظمة تدعى « منظمة أخوان الدم » والزعم هو أن هؤلاء الشباب قالوا أو أوحوا للآخرين بأنهم كانوا من « المسلمين السود» وانفصلوا لينضموا إليَّ.

أخبرت الضيوف بأن تلك أول مرة أسمع بهذه الحادثة وبأنني لا أستغرب لبروز العنف فجأة في أي من جيتوات أمريكا السوداء حيث يعيش السود محشورين كالحيوانات ويعاملون كمن بهم جزام . قلت أن الاتهامات ضدي متوقعة ومصدرها تهرب الرجل الأبيض من مواجهة الحقيقة وبحثه عن مطية – وأنه كلما حدث شيء في المجتمع الأسود يستاء منه البيض، فإن اهتمامهم ينصب ليس على السبب الأساسي بل في البحث عن مهرب من ذلك .

أما عن « إخوان الدم » فإنني أعتبر كل الزنوج أخوة في الدم . ومحاولة الرجل الأبيض أن يجعل اسمي سمًّا زعافاً يتحاشاه الناس ، نجحت في أن تجعل ملايين من الزنوج ينظرون إليَّ وكأنما أنا جولويس (أول بطل ملاكمة زنجي) .

تحدثت في قاعة ترنشارد في جامعة عبادان وأكدت للمستمعين أن على الدول

الأفريقية المستقلة أن تنظر في ضرورة رفع قضية الأفرو – أمريكي إلى الأمم المتحدة . ضربت لهم مثل يهود أمريكا الذين تجدهم في تعاضد سياسي واقتصادي وثقافي مع اليهود في كل العالم وقلت لهم أن على الأفرو– أمريكيين أن يتحذوا مع الدعوة الأفريقية العالمية . أضفت أننا نحن الأفرو – أمريكيون قد نبقى في أمريكا جسديًا نكافح من أجل حقوقنا الدستورية ولكننا فلسفياً وحضارياً في أشد الحاجة لأن « نعود» إلى أفريقيا وأن ننمي صلات وحدة عملية في قالب الأفريقية الجامعة .

سألني الشبان الأفارقة أسئلة سياسية لماحة أكثر مما يفعل رصفاؤهم بل الكبار في أمريكا . فجأة حدث شيء غريب عندما وقف رجل عجوز من جزر الهند الغربية وبدأ يهاجمني لهجومي على أمريكا . صرخ الطلاب في وجهه ، « اسكت ! اسكت !» وبدأوا يهوشون عليه ويقاطعونه . حاول العجوز الهندي الغربي تحديهم فقفز نحوه فجأة عدد من الطلبة فجرى أمامهم وبالكاد هرب منهم . لم أر في حياتي مثل ذلك المنظر . جروا من ورائه وهم يصرخون خلفه حتى اختفى من الحرم الجامعي (بعد مدة عرفت أن ذلك الرجل متزوج من امرأة بيضاء وأنه كان يجري وراء وظيفة في وكالة يسيطر عليها البيض فزرعته في وسط الحضور ليهاجمني . عندها عرفت السبب) .

لم تكن تلك آخر مرة أرى فيها إيمان الأفارقة السياسي الذي يصل درجة التعصب . بعد ذلك وفي مبنى اتحاد الطلاب غمروني بالأسئلة كذلك نصبتني «جمعية الطلاب المسلمين النيجيرية » عضو شرف بها وبطاقة العضوية مازالت في جيبي : « الحاج مالكوم اكس ، عضوية رقم م – ١٢٨.» مع العضوية أعطوني اسماً جديداً : « أوموال » وهي تعني بلغة قبيلة اليروبا « الابن الذي عاد » وكنت صادقاً حينما قلت لهم أنني لم أحظ بتشريف أكثر من ذلك من قبل .

هنالك ستمائة عضو من منظمة « جنود السلام» الأمريكية كما علمت وبعض البيض منهم الذين تكلمت معهم عبروا لي عن خجلهم من خطيئة قومهم في أمريكا ومن بين العشرين زنجيًا الأعضاء في المنظمة الذين تحادثت معهم أعجبني كثيراً واحداً منهم يدعى لاري جاكسون ، خريج من جامعة مورجان ستيت من فورت لودرديل بولاية فلوريدا انضم « لجنود السلام » عام ١٩٦٢ .

تكلمت من المذياع وظهرت على التلفاز في نيجيريا وشعرت بالنشوة تسري في عروقي وأنا أرى رجالاً سوداً يديرون وكالاتهم الإخبارية ومن بين الصحفيين الذين أجروا تحقيقاً معي هنالك زنجي أمريكي يعمل مراسلا لمجلة نيوزويك يدعى وليامز كان يتجول في أفريقيا عندما أجرى تحقيقاً صحفيًا مع كوامي نكروما قبل عهد

قريب.

في حديث على انفراد مع عدد من المسئولين النيجيريين أخبروني عن كيف تحاول وكالة الاستعلامات الأمريكية بمهارة أن تعطي الانطباع بأن الزنوج الأمريكيين يتقدمون بخطى ثابتة وأن القضية العنصرية في طريقها إلى الحل. إلا أن أحد كبار المسئولين أسرَّ لي: «أن معلومات زعمائنا وشواهد أخرى كثيرة تشير إلى غير ذلك.» قال:إن وراء الواجهة الدبلوماسية التي يبديها مسئولو الأمم المتحدة الأفريقيون علم تام بنفاق الرجل الأبيض وتآمره لمنع سكان العالم ذوي التراث الأفريقي من التلاحم، جسدياً وعقلياً، مع بعضهم البعض.

سألني أحدهم: «كم شخص أسود في بلدك يعرفون أن الأمريكيتين تحتويان على أكثر من ثمانين مليون نسمة من أصل أفريقي؟».

«إن مجرى التاريخ سيتغير في اليوم الذي تتحد فيه الشعوب ذات الأصل والتراث الأفريقي!» .

لم أسمع بمثل هذا التفكير العالمي من أي رجل أسود في أمريكا.

من لاجوس في نيجيريا ركبت الطائرة إلى أكرا في غانا. ولا أعتقد أن هنالك دولة أفريقية تجد بها الثروات الأفريقية وجمال أهليها أكثر مما تجد في غانا وهي فخورة كونها منبع الدعوة الأفريقية.

خرجت من الطائرة لتقابلني مفاجأة غير لطيفة. تقدم مني رجل أمريكي أبيض محمر الوجه، تعرف عليَّ ووجد الجرأة ليمسك بيدي وليقول لي بلكنة جنوبية ثقيلة أنه من ولاية الباما ثم دعاني للعشاء في منزله!

غرفة الطعام في الفندق ملأى بأمثال ذلك الأبيض – يتحدثون عن كنوز أفريقيا المدفونة وكأنما ليس للنادلين الأفارقة آذان. كدت أن أترك الأكل وأنا أفكر في أولئك البيض في أمريكا يطلقون الكلاب خلف السود ويرمون القنابل على كنائس السود بينما يسدون في وجوههم أبواب كنائسهم.والآن ها هنا هم، مرة أخرى في الأرض التي نهبها أجدادهم وخطفوا أهليها ورموهم في الأسر – هل هؤلاء نفس البيض ؟

في تلك اللحظة وأنا على مائدة الإفطار الغانية قررت في نفسي أنني طوال بقائي في أفريقيا وفي كل مرة أفتح فيها فاهي – سأجعل الأمور شاقة على هذا الرجل الأبيض الذي يبتسم وهو يحاول استغلال أفريقيا . في المرة الماضية جرى خلف ثروتها البشرية والآن يجري وراء ثروتها المعدنية .

كنت أدرك ألا تناقض بين قناعاتي تلك وبين الإيمان بالإخاء الذي تعلمته في

الأراضي المقدسة . المسلمون بيض البشرة الذين غيروا أفكاري كانوا رجالاً يمارسون ما يقولونه عن الإخاء الصادق وأنا أدرك أنه من الصعب العثور على أمريكي أبيض يكن إخاءً مخلصاً للرجل الأسود مهما ابتسم ذلك الأبيض .

الكاتب جوليان مايفيلد كان يبدو بمثابة قائد المجموعة الأفرو- أمريكية من المغتربين في غانا . عندما اتصلت به هاتفياً وجدت نفسي في غمضة عين وأنا جالس في منزله يحيط بي حوالي أربعين أمريكي أسود من المغتربين كانوا في انتظار وصولي . كانوا رجال أعمال ومهنيين مثل طبيب متحمس من بروكلين يدعى دكتور روبرت لي وزوجته وكلاهما أطباء أسنان تنازلا عن جنسيتهم الأمريكية . كان هنالك أيضاً اليس وندوم ، مايا أنجلو ماك ، فكتوريا جارفن وولزلي ليسي الذين كونوا لجنة أسموها « لجنة مالكوم إكس» لتنظيم جدول محاضراتي المزدحم والدعوات الاجتماعية المتلاحقة .

ما زلت أحتفظ في حقيبة يدي ببعض تعليقات الصحف الأفريقية التي ظهرت وأنا في طريقي إليهم .

« اسم مالكوم إكس معروف للغانيين معرفتهم للكلاب الجنوبية وخراطيم المياه والعصى ووجه العنصرية الأبيض القبيح .... » .

« قرار مالكوم اكس بدخول معترك النضال السياسي إشراقة أمل وسط المنظر القبيح لمقاومة اللاعنف السلبية المتعرضة للشراسة ... » .

« الحقيقة المهمة جداً هي أن مالكوم هو أول زعيم أفرو – أمريكي ذو مكانة قومية ، يقوم بزيارة مستقلة لأفريقيا منذ أن حضر دكتور دو بوا إلى غانا . ربما تكون هذه بداية صفحة جديدة في نضالنا فدعونا ألا ندعها تمر من غير أن نوليها اهتماماً أكثر على الأقل مما توليه لها وزارة الخارجية الأمريكية الآن بُدون شك . »

وتعليق آخر : « مالكوم إكس واحد من أهم زعمائنا اليوم وأكثرهم جسارة . أننا في معركة وحتماً ستبذل جهود للإساءة إليه والانتقاص من قدره .... » .

بصراحة لم أتوقع مثل هذا الاستقبال الحار وأنا على بعد خمسة آلاف ميل من أمريكا . محررو الصحف أصروا على سداد فاتورة الفندق ولن يقبلوا أي رفض مني لذلك . كان من بينهم ث. د. بافو رئيس تحرير **غانيان تايمز** ، ج. ت. أنيم المدير العام لوكالة أنباء غانا ، كوفي باتسا محرر **سبارك** والسكرتير العام لنقابة الصحفيين الأفارقة والمستر كاميرون دودو وآخرون . ليس عندي إلا الشكر لهم جميعاً . تناولنا العشاء الجميل الذي أعدته زوجة جوليان مايفيلد المليحة من بورتوريكو ، أنا ليفيا (كانت تدير برنامجاً صحيًّا في أكرا). وبعد العشاء غمرني المغتربون السود المتشوقون بأسئلتهم .

ليس أمامي إلا التمني لو أن كل أمريكي أسود سمع بأذنيه ورأى بعينيه ما سمعت ورأيت أو لو شاطرني الشعور وأنا أتحرك في غانا من موعد لآخر من الزيارات والدعوات والمقابلات التي نظمت لي . وأنا هنا لا أقصد الترحيب الذي لقيته كفرد سمعوا عنه ، ولكني أعني الترحيب الذي لقيته كرمز لنضال الرجل الأسود الجسور والذي شرفوني به باعتباري كذلك.

في مؤتمر صحفي مزدحم بنادي الصحفيين أول سؤال وجه لي كان عن سبب انفصالي من إلايجا محمد وجماعته الإسلامية وكانت وصلتهم إشاعات عن كيف أن إلايجا محمد أشترى قصراً في أريزونا. نفيت ذلك وتفاديت أي انتقاد له وقلت : إننا اختلفنا في أسلوب العمل السياسي والدخول في النضال من أجل الحقوق الإنسانية. قلت إنني أحترم جماعة الإسلام لأنها حركة ذات بُعد نفساني حيوي ومصدر للإصلاح الاجتماعي والخلقي وأن أثر إلايجا محمد على الرجل الأمريكي الأسود أثر أساسي.

أكدت للصحفيين الموجودين على ضرورة إنشاء قنوات اتصال وتعاضد بين الأفريقيين والأفرو -أمريكيين الذين تداخل نضالهم. أذكر أنني استعملت كلمة نيجرو (زنجي) فنبهوني بحزم: «هذه الكلمة غير محبوبة هنا ولكلمة أفرو- أمريكي معنى واحترام أكبر» اعتذرت بصدق ولا أظن أنني استعملت كلمة زنجي بعد ذلك طالما أنا في أفريقيا. قلت لهم إن الاثنين والعشرين مليون أفرو -أمريكي يمكن أن يكونوا مصدر قوة إيجابية لأفريقيا في الولايات المتحدة وبالمثل يمكن للدول الأفريقية بدورها أن تمارس ضغوطاً دبلوماسية ضد التفرقة العنصرية في أمريكا. أكدت لهم: «أن كل أفريقيا متحدة ضد سياسة الفصل العنصري في جنوب أفريقيا وضد الاضطهاد العنصري في المستعمرات البرتغالية. لكنكم تضيعون وقتكم أن لم تدركوا أن فيرورد وسالازار وبريطانيا وفرنسا لا يمكن أن يستمروا يوماً واحداً لولا الدعم الأمريكي. لذلك وإلى أن تفضحوا ساكن البيت الأبيض لن تحققوا شيئاً».

كنت أعلم أن ج.منين وليامز من وزارة الخارجية الأمريكية كان في زيارة رسمية إلى أفريقيا فقلت: «خذوا كلمتي وعليكم أن تتشككوا في مرامي كل هؤلاء المسئولين الأمريكيين الذين يأتون إلى أفريقيا وهم يبتسمون علماً بأنهم لا يبتسمون لنا في أمريكا» قلت لهم : إن أبي قُتل في ولاية ميشجان، نفس الولاية التي كان ج. منين وليامز حاكماً لها.

كُرِّمت في نادي غانا بوجود عدد أكبر من مندوبي الصحف والشخصيات المهمة . كذلك كنت ضيف الشرف في منزل ابنة الكاتب الأمريكي الأسود الراحل رتشارد رايت المليحة الرشيقة جوليا ذات الصوت الهادئ والتي كان زوجها الفرنسي ناشراً

لصحيفة غانية . بعد ذلك بمدة قابلت أرملة رتشارد رأيت في باريس ، إلين ، وابنته الصغرى ، راشيل .

تحدثت مع سفراء في سفارات بلادهم . ترك السفير الجزائري انطباعاً في ذهني كرجل مخلص ملتزم بالكفاح من أجل الثورة العالمية كأسلوب لحل مشاكل جماهير العالم المسحوقة ونظرته لم تكن محدودة بالجزائر بل تشمل الأفرو- أمريكيين والمسحوقين في جميع أنحاء العالم . سفير الصين - مستر هوانج ها ، رجل لماح ومحارب من الطراز الأول ، ركز على الجهود التي يبذلها الغرب للتفريق بين الأفارقة وبين ذوي التراث الأفريقي في الأنحاء الأخرى من العالم . سفير نيجيريا عبر عن قلقه العميق نحو مأزق الأفرو- أمريكيين في أمريكا والتي له بها معرفة شخصية إذ أنه عاش ودرس في واشنطن د. س. كذلك كان قد سبق لسفير مالي المتعاطف جداً ، أن عاش في نيويورك عندما كان يعمل بالأمم المتحدة . تناولت طعام الإفطار مع دكتور ماكونن من غيانا البريطانية وناقشنا الحاجة لنوع من الوحدة الأفريقية تضم الأفرو - أمريكيين كما تحدثت طويلاً عن مشاكل الأفرو- أمريكي مع نانا نكتسيا ، وزيرة الثقافة الغانية.

وبمجرد عودتي إلى الفندق وجدت بانتظاري محادثة هاتفية من مدينة نيويورك من مال جود الذي يعمل في شبكة الإذاعة الأمريكية . سألني مال جود على الهاتف عدة أسئلة عن « إخوان الدم» ونوادي السلاح الزنجية وعن مواضيع أخرى ربطتني بها الصحف الأمريكية فأجبته وشعرت به يسجلها على شريط .

في القاعة الكبرى في جامعة غانا خاطبت أكبر تجمع وأنا في أفريقيا وكان جله من الأفارقة مع بعض البيض من الحضور . أمام ذلك الجمع بذلت جهدي لأحطم الصورة الخاطئة عن العلاقات العنصرية التي كانت تنشرها وكالة استعلامات الولايات المتحدة . حاولت أن أعطيهم الصورة الحقيقية لمصيبة الإنسان الأفرو- أمريكي التي يعانيها على يد الرجل الأبيض كما أنني هاجمت البيض الحضور :

« لم أر أبداً من قبل بيضاً بمثل هذه الكثرة واللطف نحو الرجل الأسود مثلكم أيها البيض في أفريقيا . على الأفرو- أمريكي الذي يكافح من أجل الاندماج أن يحضر إلى أفريقيا ليراكم تبتسمون في وجوه الأفارقة . هل تستطيعون أن تخبروا الأفارقة أنكم في أمريكا تعبسون في وجوه السود ؟ لا ، لن تفعلوا وأنتم بصراحة لا تحبون هؤلاء الأفارقة وأكثر ما تحبونه هو المعادن التي تحت تراب أفريقيا ».

احمرت وجوه البيض بين المستمعين لأنهم يعلمون أنني أقول الحقيقة . قلت لهم : « لست ضد أمريكا ولم آت إلى هنا لأُدين أمريكا وأرجو أن يكون ذلك جلياً . جئت لأفصح بالحقائق وإذا كانت الحقائق تدين أمريكا فأمريكا إذن مذنبة ».

في إحدى الأمسيات قابلت معظم المسئولين الغانيين الذين كنت تحدثت إليهم قبلا ، وذلك في حفل على شرف إقامة السيد كوفي باكو وزير الدفاع الغاني ورئيس الجمعية الوطنية. أخبروني أن تلك كانت أول مرة يحظى فيها أجنبي بمثل هذا الشرف منذ مجيء دكتور دوبوا إلى غانا. كانت هنالك موسيقى ورقص والطعام الغاني الشهي. بعض المدعوين في الحفلة كانوا يضحكون فيما بينهم ويروون قصصاً عن كيف أن السفير الأمريكي في حفلة سابقة في نفس اليوم، كان يجهد نفسه محاولاً التودد والتلاطف معهم وفي رأي بعضهم أن كل ذلك إنما كان محاولة من السفير لأن يقلل من أثر أحاديثي التي كنت أرددها على الناس في كل فرصة.

ثم وصلتني دعوة فاقت أحلامي . لم أكن أتخيل أبداً أنني فعلاً سأُدعى لمخاطبة أعضاء البرلمان الغاني . أوجزت الحديث أمامهم ولكني كنت واضحاً وصريحاً . قلت لهم : « كيف لكم أن تدينوا البرتغال وجنوب أفريقيا بينما الكلاب تتعقب والهراوات تضرب أهلنا السود في أمريكا ؟ » قلت لهم أن السبب الوحيد لسكوت الأفارقة السود - أخوتنا السود – هو المعلومات الخاطئة التي تنشرها الحكومة الأمريكية ووكالاتها .

عند نهاية حديثي سمعت كلمات التأييد ، « نعم ، أننا نؤيد الأفرو– أمريكيين معنوياً ومادياً وجسدياً إذ لزم الأمر ».

أعظم شرف نلته في غانا بل في كل أفريقيا السوداء هو لقائي في القلعة مع المرشد دكتور كوامي نكروما .

قبل الدخول إليه تم تفتيشي بإتقان الشيء الذي جعلني أحترم النظام الأمني الذي يقيمونه حول زعيمهم وزاد ذلك من احترامي لاستقلالية السود – ومن ثم دخلت المكتب الكبير فقام واقفاً وتقدم نحوي من وراء مكتبه في آخر الغرفة .

كان دكتور نكروما يرتدي زيًّا عاديًّا فمد لي يده والابتسامة تضيء وجهه . شددت على يده بشدة ثم جلسنا على الأريكة نتبادل الحديث . كنت أدرك أنه ملم بمشكلة الإنسان الأفرو – أمريكيين إذ أنه عاش ودرس بأمريكا لسنوات . ناقشنا وحدة الأفريقيين مع ذوي الأصل الأفريقي واتفقنا أن الأفريقية الجامعة هي المفتاح لمشاكل كل أصحاب التراث الأفريقي . لمست عن قرب صفاته المتواضعة وشخصيته الدافئة المحبوبة وانقضى وقت الزيارة بسرعة فوعدته بإخلاص أنني سأنقل تحياته العطرة إلى الأفرو– أمريكيين عندما أعود إلى الولايات المتحدة .

بعد الظهر وعلى بعد تسعة وثلاثين ميلاً في مدينة ونيبه خاطبت الدارسين في

معهد كوامي نكروما الفكري حيث يتدرب مائة دارس على مواصلة الثورة الغانية وهناك أيضاً رأيت مثلاً مذهلاً على حماس وحرارة الشباب الأفريقي السياسية . في فترة النقاش بعد حديثي وقف شاب أفرو_ أمريكي لا يبدو أن أحداً يعرفه ، وأعلن ، « أنا زنجي أمريكي» ثم حاول بخبث أن يدافع عن الرجل الأبيض فما كان من الطلبة الأفارقة إلا أن قاطعوه وصاحوا في وجهه وما أن انتهى النقاش إلا وأحاطوا به وأمطروه بالإساءات : « هل أنت أحد عملاء روكفلر ؟» « لا تفسد عقول أطفالنا !» (اتضح أن الزميل كان مدرساً وضعته إحدى الوكالات الأمريكية في المدرسة الثانوية بالبلد) « تعال إلى معهدنا وتلقى بعض التنوير !» تمكن أحد الأساتذة من إنقاذه مؤقتاً قبل أن يطرده الطلاب ويطاردوه إلى الخارج وهم يصرخون « أداة ! » .... « المخابرات الأمريكية » « عميل أمريكي ! » .

أقام السفير الصيني وزوجته مسز هوانج ها حفل عشاء على شرفي وكان من بين الضيوف السفير الكوبي وسفير الجزائر كما قابلت هنالك مسز و. أى . ب. دو بوا. بعد العشاء الممتاز عرضت ثلاثة أفلام . أحد تلك الأفلام عرض احتفالات جمهورية الصين الشعبية بعيدها الرابع عشر وظهرت في ذلك الفيلم بوضوح صور روبرت وليامز ، الأفرو- أمريكي من ولاية كارولينا الشمالية الذي لجأ إلى كوبا بعد ذلك إذ كان يدعو إلى أن يحمل السود السلاح لحماية أنفسهم والدفاع عنها . ركز الفيلم الثاني على تضامن الشعب الصيني مع نضال الأفرو - أمريكيين وظهرت لقطات للرئيس ماوتسي تونج وهو يلقي خطاباً بذلك كما عرضت صور أليمة توضح قسوة رجال الشرطة والمدنيين ضد الأفرو- أمريكيين في تظاهرات في مدن أمريكية مختلفة وهم يطالبون بحقوقهم المدنية أما الفيلم الثالث والأخير فقد كان عرضاً درامياً للثورة الجزائرية .

أسرعت بي « لجنة مالكوم إكس» من السفارة الصينية إلى حفل مسائي على شرفي في نادي الصحفيين فوجدناه قد بدأ . كانت تلك أول مرة أرى فيها الغانيين وهم يؤدون رقصة الهاي - لايف المشهورة والكل يستمتع بوقته فأصروا على أن ألقي خطبة قصيرة . أكدت مرة أخرى في حديثي على ضرورة الوحدة بين الأفارقة والأفرو- أمريكيين ثم هتفت من قلبي: « عليكم الآن بالرقص ولكن تذكروا وأنتم ترقصون ، تذكروا مانديلا ، تذكروا سبوكوي ، تذكروا لومومبا في قبره! تذكروا الذين في سجون جنوب أفريقيا ! » .

قلت لهم : « قد تتساءلون لماذا لا أرقص أنا ؟ ما ذلك إلا لأني أريدكم أن تتذكروا الاثنى والعشرين مليون أفرو- أمريكي في الولايات المتحدة ».

لكنني لا أكذبكم فقد شعرت بالرغبة في الرقص وأنا أرى الغانيين يؤدون

رقصة الهاي – لايف وكأنما تملكتهم ثم غنت فتاة أفريقية جميلة أغنية « القمر الأزرق» كما تؤديها سارة فون . كذلك ذكرني عزف الفرقة الموسيقية بأداء ملت جاكسون وأحياناً بدت الفرقة وكأن شارلي باركر يقودها .

في صباح اليوم التالي ، السبت ، سمعت أن كاسياس كلاي وجماعته قد وصلوا أكرا واستُقبل استقبالاً حافلاً في المطار . فكرت في أننا لو تقابلنا أنا وكاسياس فقد يسبب ذلك بعض الحرج لكاسياس لأنه اختار البقاء مع إلايجا محمد وإسلامه . من جانبي لم أكن لأحرج ولكنني قدرت أن كاسياس لابد قد منع من الارتباط بي بأية درجة إلا أنني كنت موقناً أن كاسياس يعلم أنني أيدته وآمنت بقدراته ووقفت بجانبه عندما كان من يحتضنونه الآن يرون ألا مستقبل أمامه . قررت أن أتفادى لقاءه حتى لا أسبب له حرجاً .

بعد الظهر أقام لي المندوب السامي النيجيري سعادة الحاج عيسى والي حفل غداء . كان رجلاً قصيراً يضع نظارات على عينيه ، ودوداً ولطيفاً جداً ، عاش سنتين في واشنطن د. س. بعد الغداء خاطب الضيوف وحدثهم عن تجاربه مع التفرقة العنصرية والصداقات التي كونها مع عديد من الأفرو– أمريكيين وأكد على الروابط بين الأفريقيين والأفرو– أمريكيين.

كان سعادته يحمل نسخة كبيرة أنيقة ومجلدة من أحد أعداد مجلة **هورايزون** (الأفق) الأمريكية فرفعها أمام الضيوف وهي مفتوحة على مقال فيها عن أمة الإسلام كتبه دكتور بيرجر من جامعة برنستون . أراهم صورة لي بحجم الصفحة في المجلة وعلى الصفحة المقابلة رسم بالألوان وبحجم الصفحة أيضاً لأمير نيجيري ، مسلم طويل ، قوي البنية ووسيم من الزمن الغابر .

« عندما أنظر لهذين الرسمين أدرك أنهما لشخص واحد . الفرق الوحيد هو فيما يرتدون وكون أحدهما ولد بأمريكا والثاني ولد بأفريقيا» قال سعادته ذلك ثم أضاف : « ولكي يعلم الجميع أننا أخوة فأنني أقدم ثوباً من النوع الذي يرتديه الأمير النيجيري كهدية للحاج مالكوم إكس.»

غمرتني روعة الثوب الأزرق والعمامة البرتقالية اللذين قدمهما لي سعادته . انحنيت حتى يستطيع وهو قصير القامة أن يخلعه على . كذلك أهداني سعادته ترجمة للقرآن المجيد في مجلدين .

بعد ذلك الغداء الذي لا ينسى أخذتني مسز شيرلي جراهام دو بوا إلى منزلها لأرى والتقط بعض الصور التذكارية للمنزل الذي قضى فيه زوجها المشهور والمتوفى أيامه الأخيرة . مسز دو بوا امرأة كاتبة وتعمل مديرة للتلفزيون الغاني المخصص

للأغراض التعليمية . علمت منها أن دكتور نكروما عامل زوجها العالم والمحارب الأفرو – أمريكي معاملة الملوك وأعطاه كل ما يتمناه كذلك أخبرتني أن دكتور نكروما زار دكتور دور بوا عندما بدأت صحة الأخير تتدهور بسرعة وودع الرجلان بعضهما وكلاهما يشعر بدنو الأجل – ذهب دكتور نكروما والدموع في عينيه .

آخر نشاطاتي الاجتماعية كانت حفلة أقامها على شرف سعادة مستر ارماندو جونزاليس سفير كوبا في غانا . في صباح اليوم التالي كانت « لجنة مالكوم إكس» تنتظر في بهو الفندق لتقودني إلى المطار وقابلنا خارج الفندق كاسياس كلاي ومرافقيه عائدين من جولة صباحية . للحظة بدأ التردد على كاسياس ثم تمتم ببعض الكلمات قائلاً : « كيف حالك ؟» قفزت إلى ذهني صورة ارتباطنا الشديد ببعض قبل المباراة التي غيرت مجرى حياته . أجبت أنني بخير أو شيء من ذلك القبيل وأنني أتمنى أن يكون هو على ما يرام وعنيت ذلك بصدق . بعد ذلك بمدة أرسلت له برقية قلت فيها أنني أرجو أن يعرف مدى حب المسلمين له في كل مكان وأن لا يدع أي شخص يجعله يقول أو يفعل أشياء تضر باسمه .

بينما أنا أودع « لجنة مالكوم إكس» في مطار أكرا وصل فجأة رتل من السيارات به خمسة سفراء حضروا لوداعي .

لم تعد الكلمات تجدي لتعبر عن شعوري .

وأنا في الطائرة في طريقي لقضاء يوم في في مونروفيا عاصمة ليبيريا ، أدركت أن التجربة الثانية التي لا تمحي من الذاكرة ، بعد زيارة الأراضي المقدسة ، إنما هي زيارتي لأفريقيا وصورتها وهي تفور وعياً جادًا بنفسها وبثروتها ونفوذها ودورها المحتوم في العالم.

من مونروفيا إلى داكار عاصمة السنغال وعندما سمع السنغاليون في المطار بالمسلم الأمريكي وقفوا صفا لمصافحتي وأمهرت باسمي على عدة كتب . قال لي سنغالي منهم : « أهلونا لا يتحدثون العربية ولكن الإسلام في القلوب هنا » قلت ذلك بالضبط هو شعور إخوانهم المسلمين الأفرو– أمريكيين .

من داكار طرت إلى المغرب حيث قضيت يوماً في التجوال والسياحة . زرت القصبة وهي الجيتو الذي نتج من حرمان الفرنسيين البيض للأهالي السمر من السكن في أحياء معينة من كازابلانكا . كانت ألوف مؤلفة من الأهالي المستضعفين محشورة في ذلك الجيتو بنفس الطريقة التي صارت بها هارلم في مدينة نيويورك قصبة أمريكا .

في يوم الثلاثاء ١٩ مايو ١٩٦٤ – عيد ميلادي التاسع والثلاثون – وصلت إلى مدينة الجزائر. من بعض النواحي لدي تجربة أكثر مما يتيسر لعشرة رجال. وصف

لي سائق التاكسي أثناء الطريق إلى فندق اليتي، الفظائع التي ارتكبها الفرنسيون ضدهم والانتقام الذي قام به هو شخصيًا. تجولت في شوارع الجزائر وسمعت تعليقات العامة من كراهيتهم لأمريكا لدعمها من يضطهدون الجزائريين. كانوا ثوارا بحق لا يخشون الموت فقد واجهوه زمناً طويلاً .

أخذتني طائرة بان أميركان النفاثة إلى الوطن – سفرية رقم ١١٥ – وهبطت في مطار كندي الدولي بمدينة نيويورك في ٢١ مايو الساعة الرابعة وخمس وعشرين دقيقة بعد الظهر . نزلنا من الطائرة ووقفنا في صف أمام مكتب الجوازات عندما رأينا قرابة الخمسين أو الستين ما بين صحفي ومصور وتساءلت بأمانة في نفسي عمن تكون الشخصية المهمة من بيننا نحن الركاب التي ينتظرها أولئك .

لكني كنت « الشرير» الذي أتوا لمقابلته .

في هارلم خاصة وفي عدد من المدن الأمريكية الأخرى بدأ صيف ١٩٦٤ الطويل اللاهب بانفجاراته المتوقعة . وفي مقال أثر آخر بدأت صحف الرجل الأبيض تصورني كرمز – إن لم أكن السبب الفعلي في رأيهم – «لعنف» و «تمرد» الرجل الأمريكي الأسود حيثما انفجر.

في أكبر مؤتمر صحفي مرَّ بي في أي مكان كانت أنوار الكاميرات تومض والصحفيون يمطرونني بالأسئلة.

«مستر مالكوم إكس، ماذا عن (إخوان الدم) أولئك الذين يفترض ارتباطهم بمنظمتك ويفترض تدربهم على العنف، والذين قتلوا بيضاً أبرياء؟» .... «مستر مالكوم إكس، ماذا عن تعليقك الذي قلت فيه أن على الزنوج أن ينشئوا أندية للسلاح؟...» .

أجبت على تلك الأسئلة وأنا أدرك أنني عدت إلى أمريكا لأسمع مرة أخرى الأسئلة غير الموضوعية الباحثة عن مهرب من الحقيقة. عندما يقتل شباب نيويورك البيض، فتلك مشكلة «اجتماعية» ولكن عندما يقتل شباب سود شخصاً ما، تبحث مراكز السلطة البيضاء عمن تشنقه. عندما يعلق السود من الأشجار أو يقتلون عمداً كانوا دائماً يقولون لنا :«إن الأمور ستتحسن.» وعندما يحتفظ البيض بالسلاح في بيوتهم يعطيهم الدستور الحق لحماية منازلهم ولكن عندما يبدأ السود في الحديث عن حفظ السلاح في منازلهم يصبح ذلك نذير شؤم.

سريت إلى الصحفيين شيئاً لم يتوقعوه وقلت لهم أن ما يحتاجه الرجل الأسود هو أن يهجر ما علمه له الرجل الأبيض من أنه لا بديل أمام السود إلا استجداء «حقوقهم المدينة». قلت لهم أن على الرجل الأسود أن يدرك أن بيديه دعوى حق قوية لأن يشتكي

الولايات المتحدة أمام الأمم المتحدة ويتهمها «بإنكار حقوقه الإنسانية» – وأننا إذا نظرنا لانجولا وجنوب أفريقيا كسوابق، فإن الولايات المتحدة لن تتمكن من تفادي إدانتها هنا في عقر دارها.

وكما توقعت حاول الصحفيون جرّي بعيداً عن ذلك الموضوع وبدأوا يسألوني عن «خطابي من مكة» إلا أنني كنت مستعداً لهم:

«أرجو أن يكون حجي لمدينة مكة المكرمة قد ثبت نهائيًا ارتباط مسجدنا المسلم الحقيقي مع السبعمائة والخمسين مليون مسلم أصيل في العالم الإسلامي. وأنا أدرك للمرة الأخيرة أن شعوب أفريقيا السوداء تنظر إلى الاثنين والعشرين مليون أمريكي أسود كأبنائها المفقودين منذ زمن. أنهم يحبوننا ويتابعون كفاحنا من أجل الحرية. لقد سعدوا بسماعهم عن يقظتنا من غفوتنا الطويلة – بعد أن علمتنا أمريكا البيضاء المسماة (بالمسيحية)، الخجل من ذكر أخوتنا الأفارقة ووطننا الأم!

«نعم كتبت خطاباً من مكة. تسألونني: ألم تكتب وتقول : إنك الآن تتقبل البيض كأخوة؟ حسناً، إجابة لهذا السؤال سأقول إنني رأيت وسمعت في العالم الإسلامي وكتبت عن كيف توسع إدراكي ومثلما كتبت فأنني تبادلت حباً أخوياً حقيقياً مع مسلمين بيض لم يهتموا للحظة واحدة لعنصر أو لون بشرة مسلم آخر.

«الحج وسع مداركي وأنعم عليَّ برؤيا جديدة. في أسبوعين في الأراضي المقدسة رأيت ما لم أر في أمريكا لتسعة وثلاثين عاماً هي عمري. رأيت كل الأجناس وكل الألوان، شقراً ذوي عيون زرقاء و أفريقيين سود البشرة – في تآخٍ حقيقي ! في وحدة! يعيشون كشخص واحد ويتعبدون كشخص واحد ! لا انفصاليون و لا ليبراليون وقد لا يعرفون معنى هاتين الكلمتين حتى.

«نعم، في الماضي أطلقت الإدانات جزافاً ضد كل البيض بلا استثناء ولكنني لن أُتهم بمثل ذلك القول مرة ثانية إذ أنني اليوم أدرك أن هنالك بيضاً مخلصين حقاً وأن لبعضهم المقدرة النفسية لمعاملة الرجل الأسود كأخ. أراني الإسلام الحقيقي أن وصم كل البيض خطأ مثل وصم البيض لكل السود.

«نعم وصلت إلى قناعة أن بعض الأمريكيين البيض يودون المساعدة لعلاج العنصرية المتفشية والتي في طريقها لدمار هذا البلد.

«هنالك في الأراضي المقدسة تغير موقفي بفضل الواقع الذي عشته وبفضل ما شاهدت هنالك من تآخٍ حقيقي – ولا أعني الإخاء نحوي أنا – بل بين كل البشر من كل الجنسيات والألوان الذين كانوا هنالك والآن وأنا هنا في أمريكا تحكم نظرتي نحو البيض مواقفهم ومعاملتهم لنا وما نجده منهم من أخاء. المشكلة أننا هنا في أمريكا لا نجد إلا أقلية صغيرة من البيض الذين يمكن أن نسميهم (طيبين) أو (أخويين) هنا في

أمريكا وبالرغم من وجود الأقلية (الطيبة) من البيض فإن ما يتعامل معه الاثنين والعشرين مليونٌ أسود مجتمعين هو المائة والخمسين مليون أبيض مجتمعين.

«ولم ؟ ! هنا في أمريكا بذور العنصرية ضاربة في أعماق نفسية البيض الجماعية واعتقادهم بأفضليتهم ضارب الجذور في العقل الباطن للأمة الأمريكية وكثير من البيض لا يعون بعنصريتهم حتى يواجهون اختبارا ما وحينها تطفو عنصريتهم إلى السطح في شكل أو آخر.

«اصغوا إليَّ ! عنصرية الرجل الأبيض نحو الرجل الأسود هنا في أمريكا هي التي أودت بالبيض إلى المشاكل والصراعات في كل أرجاء العالم ومع الأجناس غير البيضاء. الرجل الأبيض لا يستطيع أن يفصل نفسه من الشعور الذي ينتابه آلياً نحو أي شخص أياً كان يختلف عنه لوناً. لقد مل وسئم الإنسان غير الأبيض من معاملة الإنسان الأبيض له التي ظاهرها اللطف وباطنها الشعور بالتفوق وذلك هو السبب وراء كل هذه المشاكل في أماكن مثل فيتنام. أو حتى هنا في نصف الكرة الغربي حيث نجد ما يقارب مائة المليون شخص من سلالة أفريقية منقسمين على أنفسهم بعد أن علمهم الرجل الأبيض أن يكرهوا وألا يثقوا ببعضهم البعض. في جزر الهند الغربية، كوبا، البرازيل، فنزويلا وفي كل جنوب ووسط أمريكا ! كل هذه الأماكن ملأى بأناس يجري الدم الأفريقي في عروقهم. وحتى في القارة الأفريقية نجح الرجل الأبيض في أن يفرق بين الأفارقة السود والعرب السمر، وأن يفرق بين ما يسمى بالأفريقي المسيحي وما بين الأفريقي المسلم. لكم أن تتخيلوا ما يمكن أن يحدث، ما سيحدث حتماً إذا تنبه كل ذوي التراث الأفريقي إلى رابطة الدم التي تجمعهم، إذا ما اكتشف كل أولئك أن هدفهم واحد - إذا اتحدوا أبدا.

لابد أن الصحفيين تنفسوا الصعداء بعد أن انتهيت وأعتقد أن الإخوة السود الذين قابلتهم لتوي في أفريقيا سيشعرون أنني أوفيت الموضوع حقه. طوال الليل ظل هاتف منزلي يرن إذ كان إخوتي السود يتصلون بي من نيويورك ومن مدن أخرى ليهنئونني على ما سمعوا في نشرات الأخبار في المذياع والتلفاز كما كان بعض الناس وأكثرهم من البيض يتصلون ليعرفوا أن كان بإمكاني أن أحضر للحديث في هذا المكان أو ذاك.

في صباح اليوم التالي كنت أقود سيارتي في طريق السفر السريع عندما توقفت عربة أخرى بجانبي عند إشارة المرور. كانت تقودها امرأة بيضاء بينما يجلس بجانبها وفي الجانب القريب مني رجل أبيض. هتف الرجل « مالكوم اكس !» وعندما نظرت ناحيته أخرج يده ومدها في اتجاهي قائلاً وهو يبتسم: « هل تمانع في مصافحة رجل أبيض ؟» تخيل ! ومع تغير ضوء الإشارة إلى أخضر قلت له: « لا أمانع في مصافحة أي بشر. هل أنت بشر ؟ »

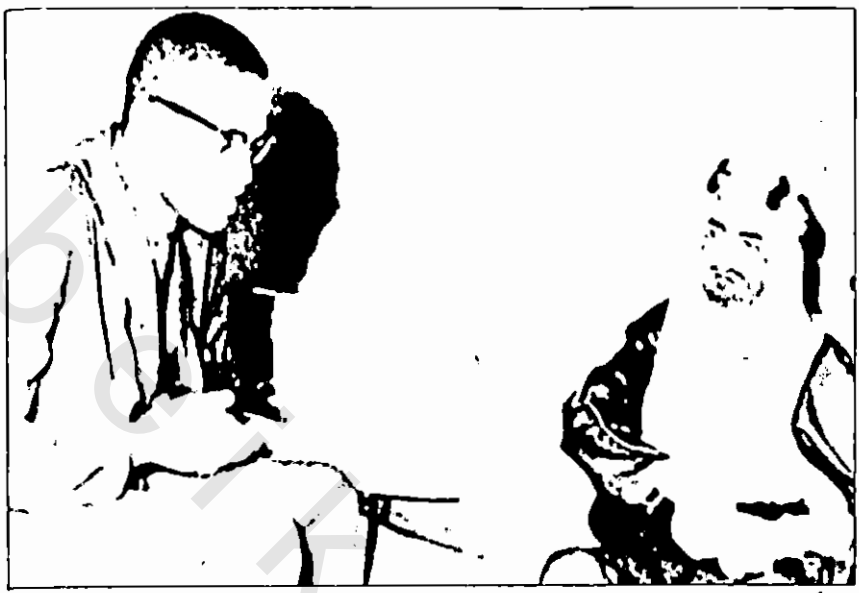

مالكوم اكس في حضرة الملك الراحل فيصل.

من اليسار لليمين مع زوجته بتي وبناته أتيلا، فيلة و اليسع ومحمد علي كلاي